المحاضرة الأولى

المحاضرة الأولى:

1))..الأدب الشعبي " الماهية والمجال " :

الأدب الشعبي:

مصطلح مركب من كلمتين :

أدب: وهو كلام ذو قيمة ثقافية وجمالية، راق على لغة التواصل المألوفة شكلا ومضمونا.

شعبي: نسبة إلى " الشعب" ومن معانيها اللغوية ما أوردها أصحاب المعاجم ..

قال صاحب مقاييس اللغة: « الشّين والعين والباء أصلان مختلفان، أحدهما يدل على الافتراق والآخر على الإجماع»، قال الخليل: « من عجائب الكلام ووسع العربية أن الشّعب يكون تفرقا ويكون اجتماعا».

والشّعب ما تشعّب من قبائل العرب والعجم، والجمع شعوب، قال جلّ ثناؤه:﴿وَجَعَلْنَاكُم شُعوبًا وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾[1]ويقال الشّعب: الحي العظيم [2]

وقال صاحب الصّحاح: «الشّعب ما تشعّب من قبائل العرب والعجم ، الشّعب : القبيلة العظيمة، وهو أبو القبائل الذي ينسبون إليه».[3]

وقال صاحب "المصباح المنير": « ... ويقال أنساب العرب ست مراتب: شعب، ثم قبيلة، ثم عمارة (بفتح العين وكسرها)، ثم بطن، ثم فخذ، ثم فصيلة، فالشّعب هو النسب الأول كعدنان .. »[4]

ومعنى النّسبة إلى " الشعب" بـ " شعبي" نسبة إنتاج وملكية ويقابل لفظ " الرّسمي " أو " النخبوي" .

ولا يزال هذا المصطلح المركب أمرا مختلفا في تحديد مفهومه ومجاله، وممّا اشتهر بين الدارسين التحديد المتعدد الذي نوجزه فيما يلي:

1. يرى فريق" بأنّ الأدب الشّعبي لأي أمّة هو أدب عاميتها التقليدي الشِّفاهي، مجهول المؤلف، المتوارث جيلا عن جيل".[5]

وهو تحديد متأثر بآراء الفولكلوريين الذين يسقطون أدب العامة الحديث، المنشور بوسائل حديثة لفقده عنصري مجهولية المؤلف والتوارث التقليدي، كما أن هذا التعريف يصطدم بكثير من أشكال الأدب الرسمي المجهول المؤلف، ولكنه لا يصنف أدبا شعبيا.

1- سورة الحجرات، الآية 13.
2- أحمد بن فارس: مقاييس اللغة، مراجعة أنس محمد الشامي، دار الحديث، القاهرة، مصر، 2008، ص450.
3- إسماعيل بن حماد الجوهري، الصّحاح، مراجعة : أنس محمد الشامي وآخرون، دار الحديث ، القاهرة، مصر، 2009، ص599.
4- أحمد الفيومي: المصباح المنير، دار الحديث، القاهرة، مصر، 2003، ص189.
5- أحمد زغب: الأدب الشعبي الدرس والتطبيق، مطبعة مزوار، ط1، الوادي، الجزائر، 2008، ص9.

2. ويرى فريق ثانٍ أنّ الأدب الشّعبي هو" أدب اللغة العامية، سواء أكان شفاهيا أم مكتوبا أم مطبوعا، وسواء أكان مجهول المؤلف أو معروفه، متوارثا عن السلف السابق أو أنشأه معاصرون معلومون لنا." [1]

واعتمد هؤلاء عامل اللغة فقط، فكل ما كتب بلغة عامية فهو _في نظرهم_ أدب شعبي، في حين أن من عيون الأدب الشعبي العالمي ما كتب بلغة فصحى ونقل لنا بطريقها، كما أن لغة الأدب الشعبي لغة وسط بين العامية والفصحى، ولا يتقيد بعامية ولا يُكْتَبُ بغيرها حتى تصبح علامة له لا تنفك عنه.

3. ويرى فريق ثالث أنّ " الأدب الشعبي":«هو ذلك الأدب المعبر عن ذاتية الشعب، المستهدف تقدمه الحضاري، الراسم مصالحه يستوي فيه أدب الفصحى وأدب العامية، وأدب الرواية وأدب الشفاهية، وأدب المطبعة والأثر المجهول المؤلف، والأثر المعروف المؤلف»[2].

ومرد هذا الاختلاف إلى تباين نظرة الحكم أباللغة أم بالشكل أم بالمضمون؟ ولذلك جاء تعريف كل فريق مستندا إلى الاعتبار المقدم عنده.

كما كان لكلمة " شعبي" "Populaire" التي تعني في أوساط كثيرة الهبوط والبساطة والانحطاط، فتنسب لذلك، كقولهم: "الأحياء الشعبية " مقابل " الأحياء الراقية" و "الأسواق الشعبية" مقابل "الأسواق الرفيعة" ... وهي نسبة أثرت على قيمة هذا الأدب حين نسب إلى مصطلح "الشعبية" .

وأيا كانت درجة الاختلاف حول تعريف "الأدب الشعبي" ومجاله فإنه بلا شك الجانب المنطوق من " التراث الشعبي" أو من " الفولكلور" ،ويشمل الأمثال والقصص والحكايات الخرافية والأساطير والأغاني والأشعار والألغاز التي تتوارثها الأجيال شفاهيا لتؤدي وظائف اجتماعية متنوعة.

ومن الدارسين من حاول جمع الاتجاهات السابقة بصياغة تعريف جامع فقال: «الأدب الشعبي هو الأدب الذي أنتجه فرد بعينه ثم ذاب في ذاتيه الجماعة التي ينتمي

1- المرجع نفسه، ص10.
2- المرجع نفسه، ص10.

إليها، مصورا همومها في قالب شعري جماعي يتماشى ونظرة الجماعة ومستواها الفكري والثقافي واللغوي وموقفها الإيديولوجي إزاء المجتمع ككل »[1]

2)).نشأة الأدب الشعبي:

عند الحديث عن نشأة الأدب الشعبي يجب التفريق بين أمرين:

أولا: الأدب الشعبي الموضوع: وهذا قديم قدم الإنسان على الأرض، لأنه أدب لازمه في كوخه البسيط، وحياته البدائية بما بذل فيها من جهد الإعمار وصراعه للبقاء، وبما أحاط به مما لا يراه فيتخيل الفرضيات ويضع الاحتمالات التي تشكلت أساطير وحكايات، وبما عَمَرَ أوقاته من قصص وروايات، وربما ترنّم راعيا أو زارعا أو صيادا أو محتفلا أو جزعا أو غير ذلك، لتتوارث ذلك كله أجيال تتسلمه عنها أجيال، وقد يزاد في ذلك أو يستبدل ، والأدب الشعبي من هذا المنظور قديم قدم الإنسان على الأرض.

ثانيا: الأدب الشعبي العلم: ويقصد به محاولة ضبط منهج ووضع قواعد، وتسطير أسس، وتحديد أهداف لدراسة هذا الماضي الغني المتعدد الصور والغايات، فهذا أنشأ حديثا، ويرجع نشوءه إلى ما أحدثته الثورة الصناعية في أوربا في القرن الثامن عشر والتي كان من ثمراتها تفتقُ العقلية الإنسانية الغربية على أشكال من العلوم التجريبية والرياضية والنفسية والإنسانية والاجتماعية والتاريخية، والثلاثة الأخيرة هي التي نشأ في كنفها الأدب الشعبي، فتحت تأثير الاعتزاز بالقوميات وإثبات الذات سعت كل أمة لبعث أمجادها القديمة، والتنقيب عما يميزها عن غيرها فطرقت أبواب التاريخ تستنطق ما وراءها.

ولكون الاجتماع الإنساني تسلسل لا يمكن قطعه، ولا سبيل لأي حديث عن مجتمع معاصر أو مستقبلي إلا بالإحاطة بالماضي، ليكتشف الباحثون السبيل لتحديد حاضرهم وتصور مستقبلهم باستشارة الماضي وفي جميع العلوم والمعارف، كان من حظ الأدب أن لا يكون له حاضر أو مستقبل إلا بنبش الجذور والبحث في الأصول.

وضمن هذا جاءت جهود السيروليام جون تومز في مقاله الداعي إلى دراسة العادات المأثورة والمعتقدات وتأسيس جمعية الفولكلور الانجليزية سنة 1846م، وهي دعوة جمع وتنقيب تستهدف تراث الشعوب القديم، لتأتي خطوة الأخوين جريم "جاكوب:

1- أحمد زغب: الأدب الشعبي ، مرجع سابق، ص 10، 11.

و"يلهلم" بجمعهما التراث الألماني ودراسته ضمن مناهج علمية ظهرت بعد ذلك وتعددت وتطورت.

3)).. خصائص الأدب الشعبي :

سبق أن عرضنا صعوبة صياغة تعريف جامع مانع للأدب الشعبي بسبب تساهل البعض في بعض شروط العمل الأدبي الذي يصنّف أدبا شعبيا، وتشدّد البعض، ومما أورده الدارسون من خصائص يمكن من خلالها تصور دلالة مصطلح الأدب الشعبي.

1..مجهولية المؤلف:

يكاد الإجماع ينعقد على هذه الصفة للأدب الشعبي، وهي لا تعني أن العمل الأدبي الشعبي لا يعرف مؤلفه دائما، بل من الأعمال الأدبية الشعبية المعلومة المؤلف، ولكن تداول هذا العمل بالنقل والرواية يعرضه للزيادة والاستبدال، ويجعله ملكا جماعيا مشاعا، ويشترك فيه الكل الشعبي، فتتفرق نسبته بينهم، ويصبح تحديد المؤلف صعبا وفي أكثر الأحوال مستحيلا، مثال ذلك: " سيرة عنترة التي ينسب تأليفها إلى يوسف بن إسماعيل ".

غير أن الدقة العلمية تفرض علينا أن نقول: إن السيرة تناقلها النّاس من عهد عنترة، لترتقي هذه الأخبار مع الزمن وتصبح شخصية صاحبها أسطورية، وإن صحّ أن مؤلف السيرة "يوسف بن إسماعيل" _لأن من الدارسين من يشكك في ذلك_ فإنه لا يعدو _في الحقيقة_ أن يكون مدونا لسيرة تداولها النّاس منذ سنين قبله، ومن بعده.

فالأثر الشعبي _إذن_:« عمل أدبي تضافرت فيه جهود مؤلفين كُثُر وعوامل سياسية واجتماعية وتاريخية متعددة لإخراجه إلى حيزالوجود، وإعطائه شكله الكامل والناضج »[1]

2..عامية اللغة:

شكّلت اللغة العامية إشكالا، فاصطدم بسببها تعريف الأدب العامي بالأدب الشعبي، فإذا كانت العامية ميزة كافية للأدب العامي، فإنها لا تكفي لتمييز الأدب الشعبي، إذ أن أعمالا أدبية شعبية لغتها فصيحة، غير أننا لا ننكر استعارة أعمال أدبية شعبية للعامية بسبب التداول الواسع لهذه الأعمال بين طبقات الشعب المختلفة المستويات العلمية والقدرات اللغوية.

1- طلال حرب: أولية النص، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان، 1999، ص67.

وقد وسمت العامية الأدب الشعبي بجانب كبير من الصدق والعفوية والبساطة والأصالة، ولأن العامية محلية النطاق محصورة الاستعمال فإنها تؤثر بالحد من انتشار العمل الأدبي الشعبي وشموله، لذلك لم يعول عليها في تداول الأعمال الأدبية الشعبية .

وجدير بالذكر أن العامية قد جلبت على الأدب الشعبي نقمة كثير من الدارسين إذ قللوا من قيمته الأدبية بدعوى هبوط المستوى اللغوي، غير أنه من الإنصاف، الإقرار للأدب الشعبي بميزات أخرى مهمة بسبب العامية، كنبوعه من أوساط الشعب، وتعبيره في صدق وأصالة عن همومهم وقضاياهم، ولم تكن العامية _كوسيلة تداول في بعض الأعمال_ لتقدح في مكانتها وقيمتها.

3..التوالي في الأجيال:

« منذ وُجِد الإنسان على الأرض، ومع تواصله مع بني جنسه، نقل الآخر عن الأول عديد المهارات ليضيف إليها من ذلك ما توارثته الأجيال من الأقوال والآثار المنطوقة نقلا، لم يكتف الناقلون _غالبا_ به، بل زادوا فيه وبدّلوا واشتركوا في إثراء بنيته، فقصة ألف ليلة وليلة مثلا، لم يكتف المترجمون لها بالنقل الحرفي بل أسبغوا عليها حالة عربية واضحة ما لبّت أن تنوعت واغتنت مع الأجيال التالية»[1]

ولهذا نجد أشكالا من الأعمال الأدبية الشعبية تشترك في جذر واحد لتختلف بعد ذلك متأثرة بطبيعة الأشخاص والبيئات والثقافات التي انتشرت فيها مثال ذاك " شخصية جحا" التي تصطبغ بصبغة المجتمع الذي نزلت فيه.

4..المشافهة:

هي ميزة غير بعيدة عن سابقتها، فالمشابهة تصور طبيعة التداول والتوالي حين تختلف عن طريقة نقل الأشكال الأخرى للأدب كالرسمي مثلا الذي يشتهر بالتدوين.

وحين تتداول الأعمال الأدبية الشعبية مشافهة ينخرط الناقلون في التعديل والتبديل ويصعب الالتزام بحرفية العمل وثبات الفعل في حدوده كما صدر، وهو الأمر الذي منح هذه الأعمال مساحة للثراء والاتساع والمرونة وإعطائها حرية أكبر في ذلك متناسبة مع كل عصر وفي كل ظرف.

1- طلال حرب: أولية النص، مرجع سابق، ص67.

"وهكذا شكّل الأدب الشعبي فضاء معرفيا وفكريا واسعا حين تجتمع فيه اللغة والدين والسحر والمعتقدات والتاريخ ... فهو يتقاطع مع كل المعارف يأخذ منها وتفيد منه في الوقت نفسه" (1)

إن الأمم والشعوب التي تريد بناء حضارتها لا يمكن لها أن تستغني عن أي شيء بإمكانه المساهمة في هذا البناء، وإن للآداب الشعبية دورها في ذلك، فليكن همُّ نصيبٍ من أفراد الأمة، قضية الأدب الشعبي جمعا ودراسة.

1- أحمد زغب: الأدب الشعبي ، مرجع سابق، ص 12.